الدكتور حسين ظاهر

تكريم الموسيقى بمناسبة عيد استقلال لبنان

سأقوم بمعالجة هذا الموضوع في نقطتين:

الأولى أتناول فيها بعض المفاهيم ذات الصلة، كمفهوم السيادة ومفهوم الإستقلال السياسي.

والثانية نُلقي فيها الضوء على الموسيقى وأثرها على الإنسان والوطن.

أولاً: بالنسبة للاستقلال السياسي والسيادة:

كلنا يعلم أنَّ الإستقلال السياسي: يعني أن تكون الدولة سيّدة في إصدار قوانينها، وتنظم شؤونها الداخلية بحرية تامة، وسيّدة في قراراتها ورسم سياساتها على المستوى الخارجي. والاستقلال السياسي يعني عدم التبعية أو الخضوع لأيّ سلطة أخرى على المستوين الداخلي والخارجي. اما الإستقلال على الصعيدين الإقتصادي والثقافي فيبدو، في عصر العولمة، محدودا جداً وغير ناجز.

أما السيادة: بمفهومها التقليدي المطلق، فتعني أنَّ ما يجري داخل الدولة هو من شأنها حصراً. والسيادة كصفة لا تعود إلاّ للدولة، إذ بالسيادة تتميَّز الدولة عن غيرها من أشكال التجمع البشري. لذا شكَّل مبدأ السيادة أهمّ الركائز التي قامت عليها العلاقات الدولية، منذ نشوء الدولة القومية في أوروبا اواسط القرن السابع عشر(مؤتمر وستفاليا) حتى أواخر القرن العشرين.

وأيّ تدخُّل في شؤون الدولة الداخلية هو عمل غير مشروع من وجهة نظر القانون الدولي، إذ نصَّت المادة الثانية من ميثاق الأمم المتحدة في فقرتها السابعة على ما يلي: "ليس في

هذا الميثاق ما يُسوّغ للأمم المتحدة أن تتدخَّل في الشؤون التي تكون من صميم السلطان الداخلي لدولة ما." (منع التدخل يطال الأمم المتحدة نفسها).

ثمَّ جاء فيما بعد، في بيان لجنة القانون الدولي، عن حقوق الدول وواجباتها، انه "يجب على كلّ دولة الامتناع عن أيّ تدخُّل في الشؤون الداخلية والخارجية لدولة أخرى". (تأكيد على منع تدخل الدول في الشؤون الداخلية لبعضها الآخر).

ومبدأ عدم التدخُّل هو النتيجة الطبيعية لمبدأ المساواة في السيادة الذي يُعدُّ أحد المبادئ الأساسية لنظام الأمم المتحدة، ويُشكّل قاعدة آمرة في العلاقات الدولية.

فالتدخُّل، بصفة عامة، يعني ممارسة ضغط من قِبَل دولة أو مجموعة من الدول على دولة أخرى بِقَصد فرض إرادة خارجية عليها من دون أن يكون لذلك سند قانوني. فهو عمل دكتاتوري يهدف إلى التأثير على الاستقلال السياسي وسيادة الدولة، باستعمال وسائل الإكراه، والضغط عن طريق القوة، على نحوٍ يتنافى مع القانون الدولي.

ولكن نشير هنا إلى إستثناءين، إذ إنَّ المجتمع الدولي شرَّع التدخل في حالتين: الأولى التدخُّل بناءً على طلب الحكومة الوطنية، والثانية تدخُّل الأمم المتحدة من أجل حماية المدنيين ومنع الإنتهاكات الجسيمة لحقوق الإنسان.

على ضوء ما تقدم،

نعود إلى الوضع القائم في لبنان ونتساءل مرَّةً أخرى: أين نحن من مفهوم السيادة والاستقلال السياسي؟

عن أيّ إستقلال نتحدَّث والبلد يخضع لعقوبات دولة عظمى، وحصار يحرم الشعب من أسباب العيش الكريم ظلماً وعدواناً. وأين الاستقلال السياسي في ظل نفوذ السفارات الأجنبية، وتأثيرها على القرارات الحكومية إلى درجة منع أو فرض تعيين أو عزل رئيس أو وزير أو

موظف كبير..ناهيك عن التدخُّل في مسألة ترسيم حدود الدولة، واستخراج ثرواتها الوطنية، وتوجيه سياستها الخارجية، ضاربة بعرض الحائط مبدأ حقّ الشعوب في تقرير المصير!!

في المحصِّلة نصل إلى الخلاصة بالقول : إنَّ الإستقلال الحقيقي يعني تمتُّع الدولة بالقدرة الكافية على اتخاذ القرار بحريَّة، والقدرة الكافية على توفير الأمن الإجتماعي والاقتصادي للمواطن، والقدرة الكافية على فرض السيادة الوطنية على الإقليم برّاً وبحراً وجوّاً.

وسيادة الأوطان في هذا العصر يا سادة، لا تستقيم إلاّ بقوَّتها وليس بضعفها أو حيادها. إذ إنَّ حِياد النعاج لم يمنع الذئاب من افتراسها.

ثانياً: لجهة الموسيقى وأثرها على الإنسان والوطن

على المستوى الوطني، ليس أدلّ على أهمية الموسيقى من أن النشيد الوطني، أول رمز من رموز التحرر والاستقلال، لا يدخل، بمضمونه وأهدافه إلى القلب والوجدان، إلاّ على أنغام الموسيقى التي تأسر المشاعر وتشدُّ الإنتباه.

فالموسيقى تُلهب الجماهير، وتُحفِّز الجيوش، وعلى وقعها تتم التمرينات والعروض العسكرية والمسرحية، وهي تحاكي المشاعر الإنسانية في الأفراح والأتراح.

وعلى مستوى الفرد والجماعة، تُعتبر الموسيقى غذاءً للروح كما الطعام غذاءٌ للجسد. فهي تؤثر على صحة الإنسان لجهة تحسين المزاج، وتعزيز جهاز المناعة، وتحسين القدرات المعرفية، وتنشيط الذاكرة، وزيادة معدل الذكاء بتأثيرها على الروابط العصبية في الدماغ.

فالموسيقى غذاء وعلمٌ وفنّ. ترتبط بعادات وثقافات المجتمعات. وقد اهتمَّ بها كبار العلماء والفلاسفة منذ القِدَم أمثال أرسطو وأفلاطون وفيتاغورس وغيرهم.. كما ظهر علماء في كتابة وتلحين وعزف الموسيقى منذ القرن الثامن عشر مع بتهوفن وأقرانه.

ولا يغيب عن بالنا ما للموسيقى من أهمية وتأثير في مجال التربية والتعليم للصغار، وفي علاج بعض الأمراض التي يعاني منها كبار السنّ (الإكتئاب)، أو على الأقلّ تخفيف الألم ...

لذا من المفيد لناجميعاً وفي أي ظرف من الظروف ، أن نترك الكلام للموسيقى، تُخاطب الروح والفؤاد والوجدان.